﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: 52]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاكتفاء بالقرآن آيـة عـلى صدق الرّسول

بعد أن أتى البيان الإلهيُّ على الاستفهام الاستنكاريِّ في الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ منكرًا على الّذين يجحدون بآيات الله، أرْدَفَ ذلك الاستفهام الاستنكاريَّ بالإجابة المناسبة بقوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ فهو سبحانه الّذي يعلم غيب السّموات والأرض، وهو الشّهيد على آيات القرآن الّتي نزلت بحفظه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر: 9]، ثم لأنّه من المعلوم أنّهم سيقولون: نحن لا نصدّق أنّ هذا الكتاب من عند الله فضلًا عن أن نكتفي به، أمره تعالى بالجواب عمّا قد يقولونه من نحو هذا بقوله: ﴿قُلۡ﴾[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدٗاۖ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُروعِهِ عَنِ الّذي ذَكَرْناهُ، مِنْ ذَلِكَ الشَّهادَةُ، يَجْمَعُ الأُصولَ الَّتي ذَكَرْناها مِنَ الحُضورِ، والعِلْمِ، والإعْلامِ، يُقالُ شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً[2]، والمَشْهَدُ: مَجْمَعُ النّاسِ، وقولُه تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ [البروج: 3]؛ الشّاهد هو النّبيّ ﷺ، والمشهودُ هو يومُ القيامة[3]، وقوله تعالى هنا: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾؛ فهو سبحانه الشّاهد الأوحد على النّاس جميعًا العالم بدواخلهم وما

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 461.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الخليل، العين: (شهد).

تُخفي نفوسهم؛ فهذه أكفأُ وأعظم شهادة على الإطلاق، والشَّهيد في أسمائِهِ تَعالَى هو الّذي لا يَغيبُ عَن عِلْمه شَيْءٌ[1].

2) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[2]، والخاسِرُ: الّذي وضع في تجارته، وكِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأَخْسَرْتُهُ، أي: أَنْقَصْتُه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق: 9]؛ أي: نَقْصًا، و﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ [النازعات: 12]؛ أي: غير مربحة[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: 3]، قال الزَّجّاج؛ أي: يُنْقِصون في الكيل والوزن، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 1 - 2]، أي: لفي عقوبة بذنوبه، وأنْ يَخسَرَ أهلَهُ ومنزلَهُ في الجنّة[4]، والخاسِرُ: الّذي نَقَصَ نَفْسَهُ حَظَّها مِنَ الْفَلاحِ والْفَوْزِ، والْخُسْرانُ: النُّقْصانُ كانَ في ميزانٍ أوْ غَيْرِهِ، وقيلَ لِلْهالِكِ: خاسِرٌ، لِأَنَّهُ خَسِرَ نَفْسَهُ وأَهْلَهُ يَوْمَ الْقيامَةِ ومُنِعَ مَنْزِلَهُ مِنَ الجَنَّةِ[5].

## ❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الآية ردٌّ على من كذّب من أهل الكتاب وأهل مكّة بالقرآن الّذي هو البيِّنات والهُدى، فنزل قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: بالله شاهدًا بيّنًا أنّي رسوله، وكفى هو شاهدًا، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ وشهادة الله له إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه، وعلمُه بما في السّموات والأرض بمعنى علمُهُ بالمخلوقات كلِّها؛ القيّوم عليها، وهذا دليل علمه بالسّرائر وخبايا النّفوس[6].

**الآيـة مـن قبيل المجادلة بالّتي هـي أحـسـن؛ وهي في عمومها وعد ووعيد**

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (شهد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) الخليل، العين، والصّاحب بن عباد، المحيط في اللّغة: (خسر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خسر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 248.
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالة فصل الآية عن سابقتها:

التّلازم بين قضيّتي الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين

فُصِلَت هذه الآية عن سابقتها لكمال الانقطاع بين الآيتين؛ إذ لمّا أوْضَحَ البيانُ القرآنيُّ رحمةَ اللهِ بالمؤمنين؛ بأنْ أنزل آياته تتلى عليهم، بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الْتَفَتَ بعدها إلى حِجاجِ المُنكرين في هذه الآية بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، ويمكن أن تكون جوابًا للسؤال السّابق في مطلع الآية السّابقة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

### دلالة الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾:

الاستشهاد بعلم الله سبحانه مناطُ الرجوع إلى النّفس والتّأمّل

خرج الأمر ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ إلى معنى الإرشاد في حِجاجِ الكافرين والمعاندين، بأسلوب جديد لم تكن تَعْلَمُه تلك المجتمعات من قبل، وهو الاستشهاد بعلم الله سبحانه، وما يمكن أن يُحْدِثَه ذلك من رجوع إلى النّفس والتّأمّل، فهم إن تَأمَّلوا في إيمانهم بالله حقَّ التّأمّل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بألوهيَّته سبحانه؛ لأنّهم أشركوا معه ما ليس حقيقًا بالأُلوهيّة، فعلموا أنّهم كفروا بالله، فتعيَّن أنَّهم آمنوا بالباطل، فالكلام موَجَّهٌ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: 24][1].

### بلاغة التّضمين في ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

حال المُنكرين لآيات الله مَثار التّعجيب

دخول الباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ لتُضَمَّن ﴿كَفَىٰ﴾ معنى (اكْتَفِ)، وهو من الحُسنِ بمكان، قال الزّجّاج: "ودخلتْ لتُضَمَّنَ (كفى) معنى (اكْتَفِ)"[2]، وأكثر ما يكون ذلك للدّلالة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.
(2) ابن هشام، المُغني: 1/ 106.

التّعجّب[1]، ويكون التّعجّب من حال أولئك الّذين لا يشعرون بعظيم شأن الله بينهم، فهو الشّهيد على كلّ شيء سبحانه، و﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ بمعنى هو كافٍ لي في إظهار الحقّ.

**معنى الباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:**

زيادة الباء للتّوكيد والتّعجيب

الباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ زائدة، وزيادتها في فاعل كفى للتّوكيد، أي زيدت في العبارة لتوكيد مضمون الكلام فيها، وحروف الجرّ الزّائدة هي حروفٌ لا تحمل معنى حرف الجرّ العادي، كالباء مثلًا في قولنا: (لستُ بخاسر)، إذ الأصل: (لست خاسرًا)، لكنّ زيادة الباء في خبر ليس يفيد توكيد المعنى.

**معنى الظّرفيّة في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:**

النّزاع بين الإيمان والكفر قائم على مرّ الزّمان

الشّهيد: هو الشّاهد، ولمّا ضُمِّنَ معنى الحاكم عُدّيَ بظرف ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، قال الشّاعر الحارثُ بنُ حِلِّزَةَ اليَشْكُريُّ في عَمْرِو بنِ هندٍ الملكِ:

وهوَ الرَبُّ والشَهيدُ عَلى يَو *** مِ الحَيارَينِ والبَلاءُ بَلاءُ[2]

ودلّ معنى الظّرفيّة على أنَّ النّزاع المستقبليّ لعموم أهل الأرض لن يخرج عمّا بيني وبينكم، فيكون في كلّ زمان دعاةٌ يدعون إلى الإيمان ومنكرون يُنكرونه فالله تعالى يكون شهيدًا بين هؤلاء وهؤلاء، ثمّ يكون بيننا يوم القيامة حاكمًا وشهيدًا سبحانه.

**توجيه المتشابه اللّفظيّ في تقديم ﴿شَهِيدًا﴾:**

الله تعالى هو الشّهيد العالم بما في السّموات والأرض

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرّعد: 43]، وقال هنا في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ وذلك أنّه في العنكبوت لمّا وصف ﴿شَهِيدًا﴾ بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 24.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18، وينظر: ديوان الحارث بن حِلِّزَةَ الْيَشْكُرِيّ، ص: 70، 100.

ناسبَ تأخيرَه؛ لِتَتْبَعَ الصّفةُ الموصوفَ، ولا يطول الكلام بسبب الحائل فيمتنع حكمًا، وليس في سورة الرعد ولا في أمثالها صفة لشهيد، فجاء على القياس في غير ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرعد: 43] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء: 81][1].

**نكتة تنكير ﴿شَهِيدًا﴾:**

تعظيمُ شهادةِ ربِّ العِزَّةِ سبحانَه وتفخيمُها

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ نكّر ﴿شَهِيدًا﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لشأن شهادة الله سبحانه، فهو الشّهيد الحقّ؛ لأنّه خالق السّموات والأرض وما فيهنّ، وخالق الحياة سبحانه، وهو عالم الغيب والشّهادة، وهي أكبر وأعظم شهادةٍ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 19].

**الموقع النّحويّ لقوله: ﴿شَهِيدًا﴾:**

حسبُ العبادِ شهادةُ الله

كلمة ﴿شَهِيدًا﴾ في قوله تعالى ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ تُعرَب تمييزًا منصوبًا، والتّمييز في أصل الوَضْع الاصطلاحيّ اللّغويّ فرْزُ الشَّيء المقصود من بين كثيرٍ من المحتمَلات المبهمَةِ وعزلُها وإزالتُها عنه، وهنا في الآية تمَّ فرزُ كلمة ﴿شَهِيدًا﴾ عن غيرها من المحتمَلات ثم أُزيلَتْ تلك المحتمَلاتُ الّتي سبَّبَتِ الإبهامَ فاتَّضَحَ المقصود وتبيّنَ المعنى، ويمكن معرفة الإبهام في الجملة من خلال قراءتها بعد حذف كلمة ﴿شَهِيدًا﴾: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، وهذا يجعل العلاقة بين عناصر الجملة ناقصةً غيرَ واضحة؛ فيأتي التّمييز لتَوْضيحها وتَبْيينها وتَفْسيرها، ولولاه لظلَّتِ الجملة ناقصةً، ولَظلَّ المتلقّي حائرًا يقول: (كفى بالله ماذا؟)، وها هنا لمّا دخلَتْ كلمةُ ﴿شَهِيدًا﴾ على قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ ميّزت في الجملة أنّ شهادة الله هي المقصودة كونُها كافيةً بيننا، وأظهرَتْ نوعَ هذا الاكتفاء في قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾.

(1) الكَرْمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 167، وابن جَماعَة، كشف المعاني، ص: 236، والفيروزآبادى، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 295.

**نكتة فصل قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:**

عظيم شأن الله تعالى وكمال علمه وقدرته مدعاةٌ للتّفكّر في عظيم شهادته

الفصل بين قوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾، وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لكمال الانقطاع بين الجملتين؛ إذ إنّهما قد اختلفتا في الخبريّة والإنشائيّة، واختلفتا في المعنى كذلك، وفائدة ورود الجملة الثّانية بعد الجملة الأولى هو لبيان شأن الله تعالى وعظيم علمه، ممّا يستدعي التّفكّر كذلك في عظيم شهادته سبحانه.

**دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:**

علم الله بالمخلوقات مُطلق

دلّ قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ على علمه المطلق سبحانه، بالماضي والحاضر والمستقبل؛ لأنّه هو الخالق، وهو القيّوم على هذا الخلق، وجملة: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مُقَرِّرةٌ لمعنى الاكتفاء به شهيدًا، فهي تتنزّل منها منزلة التّوكيد[1]، وهو سبحانه العالم بكلّ ذَرّة في هذا الوجود؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 16].

**دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلته:**

وجود ما لا يُحصى من المخلوقات

الاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ يُستعمل في الأغلب لغير العاقل، وعُبِّرَ به في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ للدّلالة على ما لا يُحصى من المخلوقات الموجودة في السّموات والأرض، وهو لبيان عظيم ما خلق الله في هذا الكون، وأنّ القيّوم على هذه المخلوقات كفى به شهيدًا على النّاس، قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

**فائدة الظّرفيّة في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:**

السّموات هي الكون كلّه، وهي واقعة في علم الله

أفادت الظّرفيّةُ في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

الدّلالةَ على أنّ السّموات هي الكون كلّه وهي تضمّ المخلوقاتِ كلَّها؛ فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء ممّا خَلَقَ، وأنّ الأرض جزء من هذه السّموات، فذِكْرُها بعد السّموات على سبيل ذِكْرِ الخاصّ بعد العامّ؛ لأنّ الإنسان هو الخليفة في الأرض؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وهو المُخاطَبُ بهذا الكتاب المبين، فالأرض بمخلوقاتها واقعة في وعاء السّماء، ثمّ هي جميعًا في علم الله تعالى.

**معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:**

إحاطة علم الله بجميع ما خلق سبحانه

فائدة التّعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استغراقُ كلِّ أفرادِ جنس السّموات والأرضين، والدّلالة على الشّمول والكمال وإحاطة علم الله بالسّموات والأرض جميعها، وبجميع مَنْ فيها مِنَ الكائنات والمخلوقات الحيّة وغيرها، أو هي من قبيل إيضاح ما لم يكن واضحًا للمخاطَب، فالسّموات السّبع لا زالت مجهولةً لعلماء الفلك إلى يومنا هذا، وهذا ما يقتضي دراستها والتّفكّر فيها، ولا زالت كذلك الأرض بمجاهلها وما تضمّه في باطنها خفيّةً على العلماء؛ مما يستدعي التّفكّر والتّدبّر أيضًا.

**نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:**

جمع السموات يدل دارسيها على عظمة الخالق من عظمة المخلوق، وإفراد الأرض يدل ساكنيها على حقارة الدنيا مقابل الآخرة

في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جُمعت السَّموات وأُفرِدَتِ الأرض؛ ونكتة ذلك أنّ المخاطَب يعيش على الأرض، وهي أرض واحدة، وقد أخبر القرآن أنّ في هذا الكون سبعَ سمواتٍ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [تبارك: 3]، فذِكْرُ السّموات بالجمع، والأرضَ بالإفراد آتٍ من حيثُ أنّ سَعَةَ الأرض بالنّسبة إلى السّموات كحصاة في صحراء وذلك تحقيرًا لها في عيون ساكنيها، وأنّ خَلْقَ السّموات أعظمُ من خَلْقِ الأرض في عيون دارسيها، لأنّها

أعلى وأوسع، وأعظم وأرفع، وجمعها يدلُّ على عظمة خالقِها ومبدعِها سبحانَه[1].

**بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:**

المطابقة بين السّموات والأرض واضحة في أمور عديدة، منها أنّ السّموات هي الجهة العليا للمخاطَبين، وأنّ الأرض هي الجهة الدّنيا، وأنّ السَّمواتِ جمعٌ، وأنّ الأرضَ مفردٌ، وأنّ السَّموات لا تنمو فيها الحياة، وذلك بخلاف الأرض؛ إذ جعلها الله تعالى مرتعًا للحياة وللمخلوقات الحيّة من النّبات والحيوان والإنسان، والجمعُ بينهما على ما يَضُمّانِه من مخلوقاتٍ دليلٌ على سَعَةِ علمه جلّ في عُلاه.

الجمع بين السّماوات والأرض دليل على سعة علمه جلّ في عُلاه

**معنى الواو في: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:**

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: استئنافيّة؛ تفصل بين ما قبلَها وما بعدَها نحويًّا ومعنويًّا؛ فبعد أنْ ذَكَرَ اللهُ قدرتَه وعظمةَ علمِه سبحانَه وإحاطتَه بكلِّ شيء، أرْدَفَها هُنا ببَيان مصيرِ غيرِ المؤمنين بالله؛ وهم المؤمنون بالباطل جهلًا أو عِنادًا، فذَكَرَ أنّهم في خُسران وخَيبة، وضياع وحَيرة.

الإيمان بالباطل من عمل الجاهل والكفران مصيرُه الخسران

**غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:**

التّعبير بالاسم الموصول (الّذين) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ دالٌّ على عموم الّذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله، ومهما اختلفت أساليبهم ومناهجهم فإنّهم خاسرون حتمًا، وفي التّعبير بالموصول وصلته تشويقٌ لما يَرِدُ بعدَه من الحكم المناسب للصّلة، وهو الخسران، وإيماءٌ إلى علّته، أي: لأجل إيمانهم بالباطل.

الإيمان بالباطل عِلّة خُسران الجاهل

**معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:**

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ دلّ على الإلصاق والمصاحبة،

(1) منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن بتصرّف، ص: 205.

فهم يؤمنون بالباطل، ملتصقون به؛ لأنّه مُعارِضٌ للحقِّ ولقضية الإيمان والتّوحيد.

**معنى (أل) في ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:**

(أل) التّعريف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ لاستغراق الجنس، ودلّت على عموم ما هو معارِضٌ لكتاب الله، وآياته البيّنات؛ ليشمل كلَّ معبوداتِهم من دون الله؛ لأنّ كلّ معبودٍ ما سوى اللهِ باطلٌ، فالباطلُ كلُّ ما هو منافٍ للإيمان بالله وبرسوله.

الباطل كلُّ ما عُبِد من دون الله ومُنافاته للإيمان ظاهرة للعيان

**دلالة لفظ الباطل على المحذوف:**

قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ فيه دلالة على الموصوف المحذوف والتقدير: آمنوا بمعبودهم الباطل، وهو كلّ ما عُبد من غير الله تعالى، ودلّ الباطل على أصناف تلك المعبودات الّتي قد تكون عينيّةً، فتكون حجارةً تُعبَد أو حيوانًا يُتَّخَذ بركةً ويُعتقَد منه النّماء، أو غيرَ عينيّةٍ كمن اتّخذ إلهه هواه، والاكتفاء بالمذكور دون ذِكْرِ المعبود توسّعٌ في الدّلالة دالٌّ على الشّمول.

التّوسّع في شمول أنواع المعبودين من غير الله

**معنى العطف بالواو في: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾:**

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ للعطف، وهذا العطف جاء لفائدةٍ غيرِ التّأكيد، بل لبيان قبح الإيمان بالباطل، فإذا كان الإيمان بما سوى الله تعالى كفرًا به، فإنَّ كلّ من آمن بالباطل فقد كفر بالله تعالى، فذِكْر الثّاني معطوفًا على الأول إنما هو لبيان قبح ذاك الأوّل، كقولنا لأحدهم: أتقول بالباطل وتترك الحقّ؛ وذلك لبيان أنّ قوله بالباطل قبيح مرذول[1].

عطفٌ يَكِرُّ على المعطوف عليه؛ بِبَيانِ قُبْحِ ما هو عليه

**فائدة المقابلة بين الإيمان والكفر:**

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ بلاغةُ المقابَلة بين (الإيمان بالباطل) و(الكفر بالله) في ذات الجملة؛ وذلك

تقريرٌ لقاعدةٍ تجعل الإيمانَ بالباطل كفرًا بالله

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 66.

لتقرير قاعدةٍ مفادُها أنّ أيّ إيمانٍ بغير الله هو إيمانٌ بالباطل، وأنّ مَن آمن بالباطل فقد كفر بالله؛ حتّى وإنِ ادّعى عدم إيمانه بأيِّ خالقٍ؛ كالملحدين ومن سار على شاكلتهم، فهم يؤمنون بباطلٍ يُسَمّونه الطّبيعة.

**بلاغة الإطناب في إتْباع (الإيمان بالباطل) بـ(الكفر بالله):**

كـفرهـم بالله لإشـراكـهـم مع الله في الأُلوهيّة

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾، تَمَّ ذِكْرُ الكفر بالله بعد الإيمان بالباطل، مع أنّ الإيمان بالباطل هو كفرٌ بالله؛ وذلك نوعٌ من الإطناب فائدتُه أنّ كفرَهم بالله لإشراكِهم مع الله في الأُلوهيّة، فكفروا بأعظم صفاته جلّ وعزّ، وهي الوحدانيّة، فكانوا مشركين غير موحّدين.

**معنى الباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:**

تَـقَـصُّـدُ الـكـفـرِ بالله وبما أتى منه سبحانه

الباء في ﴿بِٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ للإلصاق، وفائدتها أنّ هؤلاء القوم يُلصقون كلَّ أفكار الكفر بالله، أو بما أتى من الله تعالى من الكتاب والرّسالات والرّسل، فيَقْصِدون الكفر بالله تعالى، ويُعْرِضون عن الآيات البيّنات الّتي أتت منه تعالى.

**بلاغة الطّباق بين ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَكَفَرُواْ﴾:**

إيـمـانٌ يُـنْـبَـذ، وكُفْرٌ يُؤْخَذ

قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ من لم يَعُدَّه من قبيل المُقابلة، فقد جعل الجمع بين ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَكَفَرُواْ﴾ طباقًا كونه محسّنًا بلاغيًّا أيضًا، والباطل: ضِدُّ الحقِّ؛ أي ما ليس بحقيقٍ أنْ يؤمن به؛ أي ما ليس بإلهٍ حق؛ ولكنهم يدَّعون له الألوهيّة؛ وذلك لإيمانهم بألوهيّة الأصنام، وأمّا كفرهم بالله فلأنّهم أشركوا معه في الألوهيّة فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانيّة[1].

**نكتة فصل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:**

الخسران عاقبة الكفران

الفصل بين الجملتين لكمال الاتّصال بينهما؛ فالجملتان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

خبريّتان، ومتّفقتان في المعنى؛ إذ أتت الجملة الثّانية مُبيّنة وموضّحة للأولى، بوصفها وصفًا مستحقًّا للإيمان بالباطل والكفر بالله.

### دلالة التّعبير باسم الإشارة البعيد:

المشار إليهم الخسران حريٌّ بهم

واسم الإشارة يفيد التّنبيه على أنّ المشار إليهم حَريّون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف الّتي ذُكِرَتْ لهم قبل اسم الإشارة مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5][1]، فضلا عمّا فيه من دلالة البعد عن كلّ خير.

### بلاغة الحصر في جملة الفاصلة:

الإيمانُ بالباطلِ والكُفر بالله جِلْدٌ مِن طَرفَينِ، وزَيْفٌ مِن وجْهَينِ

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يقتضي الحصر؛ أي مَنْ تلبَّس بالباطل إيمانًا، وبالخالق كفرًا فهو الهالك خُسرًا، والظنّ بأنّ مَن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي ألّا يكون خاسرًا؛ يجاب بأنّ عملَه جِلْدٌ من طرفين، وزَيْفٌ من وجهين؛ إذ يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيًا بالآخر[2].

### بلاغة القصر بالتّعريف:

كلّ خُسران في جانب خُسران الله تعالى كالعدم

القَصرُ المُستَفادُ من تَعْريفِ جُزْأَيْ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ لِلمُبالغةِ في اتِّصافِهِم بِالخُسرانِ العظيم بحيث إنَّ كُلَّ خُسرانٍ في جانبِ خُسرانهم كالعدَم، فكأنّهُمُ انْفردوا بالخسران؛ فأُطلِقَ عليهمُ المُرَكَّبُ المُفيدُ قَصْرَ الخُسرانِ عليهم وذلك لأنَّهم حَقَّتْ عليهمُ الشَّقاوَةُ العُظمى الأبديَّةُ، واستُعيرَ الخُسرانُ لانْعكاسِ المأمولِ مِنَ العملِ المُكِدِّ تَشبيهًا بِحالِ مَنْ كَدَّ في التِّجارةِ ليَنالَ مالًا فأفْنَى رَأْسَ مالِهِ[3].

### بلاغة التّوكيد في جملة الفاصلة:

لا ربح لمن لا يؤمن بالله الواحد الأحد

أكّد سبحانه وتعالى الخسران في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 17 - 18.

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ أوّلُها: التّعبير بالجملة الاسميّة، ففي التّعبير بها تعبير بأكمل القول الدّالّ على الاستمرار، وثانيها: التّأكيد بكلمة ﴿هُمُ﴾، وهي تدلّ على انفرادهم بالخسارة دون المؤمنين بوصفهم الرّابحون دائمًا، وثالثها: تعريف المسند والمسند إليه الدّالّ على القصر؛ أي إنّهم مقصورون على الخسارة، فلا يربحون أبدًا ما داموا قد آمنوا بالباطل وكفروا بالإله الحقّ، والمعبود الواحد الأحد.

**دلالة التّعبير بـ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مادّة وصيغة:**

اكتمال خسران المعاندين الضّالّين

الخُسْران هو النّقص فيما شأنه النّماء وعبّر بالخسران؛ لأنّ الفوز والنّجاة لا يكون إلا بالإيمان بالله، فلمّا نقضوه بإهمال العقلِ عن النّظر واقتناصِ ما يفيدُهمُ الحياةَ الأبديةَ واستبدالِ الإنكار والطّعنِ في الآيات بالإيمان بها والتّأملِ في حقائقها والاقتباسِ من أنوارها حَبِطَ عملُهم[1]، والتّعبير عنه باسم الفاعل دلالةٌ على كمالهم في الوصف وعراقتهم فيه لأنّهم اشتروا الكفر بالإيمان.

**بلاغة الاستعارة في ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:**

استعارة الخسران لانعكاس المأمول

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يعني: المغبونون في صَفْقَتِهم حيث اشتَرَوُا الكفرَ بالإيمان فاستوجبوا العقاب يوم الحساب، وفي الكلام استعارة مكنية شبه استبدال الكفر بالإيمان المستلزم للعقاب باشتراء مستلزم للخسران[2]، فاستعير الخسران لانعكاس المأمول من عمله[3]، وفي الخسران استعارة تخيّليّة هي قرينَتُها؛ لأنّ الخسران مُتَعارَفٌ في التّجارات، وهذا الكلام ورَدَ مَوْرِدَ الإنصاف حيث لم يصرّح بأنّهم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله تعالى؛ بل أبرزه في معرض العموم، ليهجم به التّأمل على

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 1/ 76، 211.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

المطلوب؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24][1].

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الخُسران والوَضيعَة:

كمالُ الخسران وتمامه عبادة غير الله

الوضيعة: (وَضَعَ) الواوُ والضّادُ والعَيْنُ: أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الخَفْضِ لِلشَّيءِ وحَطِّهِ، ووضَعْتُهُ بالأرضِ وضْعًا، ووضَعَتِ المَرأةُ ولَدَها[2]، والمعنى المحوريُّ الهويُّ بالشَّيءِ إلى مَقَرٍّ مُنْخفضٍ يَثْبُت فيه عن حيّز عالٍ كان فيه، ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤﴾ [الغاشية: 14]، وضَعَ الشَّيءَ من يدِه: ألْقاه، ووضَع الشَّيءَ: ضِدُّ رَفَعه، ووَضَعَ الشَّيءَ في المكان: أثْبته فيه[3].

الخسران: (خَسِرَ) الخاءُ والسِّينُ والرّاءُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[4]، وكِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأخْسَرْتُهُ، أي: أنْقَصْتُه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرٗا ٩﴾ [الطلاق: 9]؛ أي: نَقْصًا[5].

والوضيعة ذهابُ بعض رأس المال، ولا يقال لمن ذهب رأسُ مالِه كلُّه قد وضَعَه، أما الخسران فذهاب رأس المال كلّه، ثمّ كثر حتّى سُمّي ذهابُ بعض رأس المال خُسرانًا، وقال الله تعالى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الأنعام: 12]؛ لأنَّهم عُدِموا الانتفاع بها، فكأنَّها هلكت وذهبت أصلًا، فلم يقدر منها على شيء[6]، وقوله في الآية: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ أي بأتمّ وجوه الخسران، وهذا لأنّ من يخسر رأس المال ولا تركبه ديونٌ يطالَب بها؛ دون مَن يخسر رأس المال وتركبه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وضع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (خسر).
(5) الخليل، العين، والصّاحب بن عباد، المحيط في اللّغة: (خسر).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 574.

تلك الدّيون، والكافرون لَمّا عبدوا غير اللّه تعالى أَفْنَوُا العُمُرَ ولم يحصل لهم في مقابلته شيءٌ ما أصلًا من المنافع، واجتمع عليهم ديون تَرْكِ الواجبات يطالَبون بها حيث لا طاقة لهم بها[1]، فهذا هو الْخاسِرُ الّذي نَقَصَ نَفْسَهُ حَظَّها مِنَ الْفَلاحِ والْفَوْزِ، فقد خَسِرَ نَفْسَهُ وأَهْلَهُ يَوْمَ الْقيامَةِ ومُنِعَ مَنْزِلَهُ مِنَ الجَنَّةِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 66.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 248.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»